الفصل الثاني

ملامح حياة قبيلة الخزرج قبل الإسلام

١- الحياة الاجتماعية لقبيلة الخزرج قبل الإسلام.

٢- النشاط الاقتصادي لقبيلة الخزرج قبل الإسلام.

٣- الحياة الدينية لقبيلة الخزرج قبل الإسلام.

٤- الحياة الثقافية لقبيلة الخزرج قبل الإسلام.

١- الحياة الاجتماعية لقبيلة الخزرج قبل الإسلام

تعتبر البيئة اليثربية جزءًا من شبه جزيرة العرب الصحراوية، وكانت الصحراء هي العامل الأساس في تشكيل الحياة الاجتماعية بها؛ ففي هذه المدينة كانت تعيش العشائر المختلفة حياة الحرية والاستقلال، فلا تقر بالطاعة لأحد، كالبدو في خيامهم. وما من شك في أن شعور الشرف كان بالغ التأثير عند هذه العشائر، وكان مورد العيش الرئيس لسكان المدينة هو الزراعة والعناية بالنخيل، فكانت يثرب تتألف من أراض محروثة، وبيوت مستقرة متناثرة بين أشجار النخيل والحدائق والحقول المزروعة[١].

المسكن:

سكن الخزرجيون - كسائر أهل المدينة - في بيوت تكونت من طابقين؛ طابق أرضي، وطابق علوي، وكانوا يسكنون الطابقين، ولعلهم كانوا يودعون ماشيتهم ودوابهم الطابق الأرضي[٢]، أو كانت توضع في الكنيف[٣]، ولقد كانت دار أبي أيوب الأنصاري الخزرجي التي استضاف فيها رسول الله ﷺ من طابقين[٤].

وكانت هذه البيوت تبنى باللَّبِن، أو الطين، وتكون على أبوابها مُسُوح الشَّعر، وقد عرشت سقوفها بجريد النخل وبالأخشاب المحتطبة من التلال والجبال، وكانت هذه صفة معظم بيوت يثرب في الجاهلية والعهد النبوي، عدا بيوت الأثرياء، التي كانت تبنى من حجر وكلس، وبها وسائل الترفيه والراحة المتوفرة بالقياس إلى ذلك الزمان؛ أما

---

(١) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٢.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ١٧.

(٣) **الكنيف:** حظيرة من شجر تجعل للإبل؛ محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، تحقيق: محمد بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ب - ت)، ج ٣، ص ٣٩١.

(٤) ابن هشام: سيرة النبي، ج ٢، ص ٦٤.

الآطام فقد كانت تتكون من طابقين أو ثلاثة، وكانت ضخمة نوعًا ما، وقد بنيت بالآجر وباللبن أحيانًا[١].

الأسرة:

كانت الأسرة في يثرب هي النواة الأساسية للمجتمع اليثربي، الذي يتكون من مجموعة كبيرة من البطون والعشائر؛ ولهذا فقد كان للزواج عند الخزرجيين أهمية كبرى، وله مقاصد سامية، كان أهمها التناسل والتوالد لزيادة عدد العشيرة، فكانوا يقولون: "من لا يَلِد لا وُلِد"[٢]، ومنها تأليف القبائل والعشائر بالزواج من قبيلة أخرى، بالإضافة إلى ما تتولاه النساء من تدبير المنزل، ومن هنا فقد كانوا يحبون المرأة الولود، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: "سوداء وَلُود خير من حسناء عاقر"[٣]. وكانوا يرون نكاح البُعَداء والأجانب، ويرون أن ذلك أنجب للولد وأبهى للخِلْقَة[٤].

وكان للرجل أن يتزوج من أكثر من امرأة، ويجمع بين أي عدد شاء من الزوجات دون تحديد، أما الاكتفاء بامرأة واحدة أواثنتين، فذلك أمر خاص يعود إليه، وكان للرجل أن يرث امرأة أبيه، وسمي بنكاح المقت[٥]، ويقول الطبري – في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾[٦]: كانت الوراثة في أهل يثرب أن يرث الرجل امرأة أبيه، كما يرث أمه، لا يستطيع أن يُمنع، فإن أحب أن يتخذها اتخذها كما كان

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٦، ص ١٠٢؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٨، ص ٣١.

(٢) محمود شكري الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٧، ٨.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير بسنده (١٩/٤١٦/١٠٠٤) ، وابن حبان في "المجروحين" (٢/١١١)، وفيه: "إِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ، حَتَّى إِنَّ السَّقْطَ لَيَظَلُّ مُحْبَنْطِئًا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلْ، فَيَقُولُ: أَنَا وَأَبَوَايَ، فَيُقَالُ: أَنْتَ وَأَبَوَاكَ". قال ابن حبان (٢/١١١): "وهذا حديث منكر لا أصل له، من حديث بهز بن حكيم، وعليٌّ هذا يروي المناكير، فلما كثر في روايته المناكير بطل الاحتجاج به". وقال الهيثمي في "المجمع" (٤/٢٥٨): "رواه الطبراني، وفيه علي بن الربيع وهو ضعيف".

(٤) محمود شكري الألوسي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٩.

(٥) جواد علي: المصدر السابق، ج٥، ص ٥٣٤، ٥٤٧.

(٦) النساء:١٩.

أبوه يتخذها، وإن كره تركها، وإن كان صغيرًا حبست عليه حتى يكبر، فإن شاء أصابها وإن شاء فارقها[١]. وقال ابن عباس: "كانوا بالمدينة إذا مات الرجل وترك امرأة، يُلْقِي عليها ابنه ثوبه فيرث نكاحها، وكان أحق بها، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت قبيحة حبسها حتى تموت فيرثها"[٢]. وقال ابن حبيب في المحبر: "كان الرجل إذا مات ورث ابنه نكاح امرأته، فإن لم يكن له حاجة بها، زَوَّجَها بمهر جديد"[٣].

ولقد أبطل الإسلام هذا الزواج، وفَرَّقَ بين رجال ونساء آبائهم وكانوا كثيرًا[٤]، وذلك بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾[٥].

وكانت المرأة تخطب إلى أبيها أو أخيها أو عمها، أو بعض بني عمها، وكان الأصل فى المهر عند الجاهليين أن يدفع للمرأة، غير أن ولي أمرها يأخذه لينفق على ما يُشْتَرَى لتأخذه المرأة معها إلى بيت الزوجية[٦]، وقد يأخذ ولي الأمر المهر لنفسه، ولا يعطي المرأة شيئًا، حتى إنهم كانوا يقولون لمن ولدت له بنت: "هنيئًا لك النافجة"، ومعناه أنك تأخذ مهرها إبلا فتنفج مالك أي تُعَظِّمه[٧].

أما عن الطلاق عند أهل الجاهلية، فقد كان بيد الرجل، فكان الرجل يطلق الثلاث والعشر، وأكثر من ذلك[٨]، ولو طلقها ألف مرة كانت القدرة على المراجعة ثابتة

---

(١) أبو جعفر الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م، ج٨، ص ١٠٣.

(٢) نفسه، ج٨، ص١٠٤.

(٣) أبو عبد الله المصعب الزبيري: نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، ط٣، (ب – ت)، ج ١، ص ١٠؛ أبو جعفر محمد بن حبيب: المحبر، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، (ب – ت)، ص ٣٢٥.

(٤) نفسه، ص ٣٢٦.

(٥) النساء:٢٢.

(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ٥٣١.

(٧) الرازي: تفسير مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م، ج٩، ص ١٨٧.

(٨) جواد علي، المصدر السابق، ج٥، ص ٥٥٣.

له[١]، وذكر أن رجلًا من الأنصار غضب على امرأته، فقال: "لا أقربك ولا تحلين مني، قالت: كيف؟ قال: أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا راجعتك"[٢]، وجاءت امرأة إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فشكت أن زوجها يطلقها ويراجعها يُضارها بذلك، فذكرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك لرسول الله ﷺ[٣]، فنزل قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾[٤].

ومن هنا فإن بعض النسوة كنَّ يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بأيديهن، إن شئن أقمن، وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق؛ وذلك لشرفهن وقدرهن، وكان أهم هؤلاء سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن عامر بن غنم بن عدي النجارية الخزرجية، التي تزوجت من هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وأنجبت له عبد المطلب بن هاشم الذي كان سيد مكة في عهده[٥].

وكان الرجل إذا أراد طلاق امرأته يقول لها: "حبلك على غاربك - أي خليت سبيلك - فاذهبي حيث شئت"، أو يقول لها: اخترت الظباء على البقر، أو سرحتك، أو فارقتك[٦]، وكانت طريقة طلاق المرأة التي تملك العصمة في يدها، أن تحول باب خبائها، إن كان بابه قِبَل المشرق حولته قبل المغرب، وإن كان بابه قبل اليمن حولته قبل الشام، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلا يأتيها[٧].

وهناك نوع آخر من الطلاق، سماه القرآن (الظهار)، وهو أن يقول الرجل لامرأته: "أنت عليَّ كظهر أمي أو كبطنها، أو كظهر أختي أو عمتي، أو ما شابه ذلك"[٨]، وعن ابن

(١) الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ج٦، ص ١٠٤.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٢٧١.
(٣) الرازي، المصدر السابق، ج٦، ص ١٠٤.
(٤) البقرة: ٢٢٩.
(٥) ابن هشام: سيرة النبي، ج ١، ص ٩٢؛ ابن حبيب: المحبر، ص ٣٩٨.
(٦) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ٥٤٨.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، ج١٦، ص ١٠٢.
(٨) جواد علي، المرجع السابق، ج٥، ص ٥٥٠.

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "كان الرجل إذا قال لزوجته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي، حرمت عليه"(١)، ولقد كان أول من ظاهر في الإسلام "أوس بن الصامت بن قيس الخزرجي" - من القواقلة - حيث ظاهر من زوجته "خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية"، فذهبت شاكية إلى رسول الله ﷺ، فنزل صدر سورة المجادلة فيهما(٢)، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾(٣)، وهكذا نزل الأمر من الله فلم يجعله طلاقًا، وجعل فيه الكفارة.

دور المرأة:

على الرغم من أن المرأة كانت تقوم عليها رَحَى الحياة الجاهلية، إلا أن دورها كان غير ظاهر في أنحاء شبه الجزيرة العربية، غير أن المرأة فى المدينة كانت صاحبة أمر ونهي قبل الإسلام، فلقد روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "كنا معاشر قريش تملك رجالنا نساءهم، فقدمنا المدينة فوجدنا نساءهم تملك رجالهم، فاختلط نساؤنا بنسائهم فذئرن على أزواجهن"، أيّ: نشزن واجترأن(٤)؛ فدل ذلك على ارتفاع مكانة المرأة اليثربية، وتسامح الرجل معها، ووده لها، ولقد تمتعت بعض النساء الخزرجيات بالشهرة والأهمية، مثل: سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية.

وذكر بعض علماء التفسير: "أن العرب في المدينة - وما والاها - كانوا قد استنوا بسنة بني إسرائيل في تجنب المرأة الحائض وعدم مساكنتها أو مؤاكلتها أو مجالستها"(٥)، وبعد الهجرة سأل أهل يثرب رسول الله ﷺ في ذلك، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾(٦)؛ ولكن الإسلام سمح بالتعامل مع

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٨٧.
(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٧، ص ٩٢.
(٣) المجادلة: ٢.
(٤) الرازي: تفسير مفاتيح الغيب، ج١٠، ص ٩٤.
(٥) نفسه، ج٦، ص ٦٨؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥٨٥.
(٦) البقرة: ٢٢٢.

المرأة أثناء الحيض، فقد ورد أن رجلًا سأل السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها[١].

الميراث:

كان النسب أو العهد أهم أسباب الميراث عند الخزرج، وكان يراعى في الوراثة من النسب درجة القربى، وأما العهد فمن وجهين؛ الأول: الحلف، فكان الرجل في الجاهلية يقول لحليفه: "دمي دمك، وهدمي هدمك، وترثني وأرثك"، والثاني: التبني[٢].

وكانت القاعدة العامة في الميراث هي أن يكون الإرث خاصًّا بالذكور الكبار دون الإناث، على أن يكونوا ممن يركب الفرس ويحمل السيف[٣]، وكانوا لا يعطون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئًا من الميراث[٤]، وكانوا يقولون: لا يرث إلا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة[٥].

وقد جاء في الأخبار ما يجعل المرأة من ضمن تركة المتوفى، وذلك إذا لم تكن أم ولد، ويكون من حق الابن البكر التزوج بها، وإذا لم يكن له بها رغبة انتقل حقه فيها إلى الولد الثاني، وإذا لم يرغب بها انتقل حقه إلى بقية الورثة بحسب قربهم من الميت وحقهم في الميراث[٦]، وكان من حق الولد البكر منع المرأة من التزوج إلا بعد رضاه؛ أما عن إرث المرأة والزوجة في الجاهلية، ففي الأغلب أنها لا ترث، وإن كان هناك بعض القبائل تورث المرأة.

وقد أُلْغِي عدم توريث المرأة في العهد الإسلامي، عندما توفي أوس بن ثابت بن المنذر ابن حرام النجاري الخزرجي عن امرأة وثلاث بنات كانوا إلى الدمامة أقرب[٧]، فجاء

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥٨٦.
(٢) الرازي، تفسير مفاتيح الغيب، ج٩، ص ٢١٠.
(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ٥٦٢.
(٤) ابن حبيب: المحبر، ص ٣٢٤؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٤.
(٥) الرازي: المصدر السابق، ج٩، ص ٢٠٢.
(٦) ابن حبيب، المصدر السابق، ص ٣٢٥.
(٧) جواد علي، المرجع السابق، ج٥، ص ٥٦٣.

رجلان من بني عمه، وكانا وصيين له، هما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله، فجاءت امرأة أوس بن ثابت إلى رسول الله ﷺ وشكت إليه[١]، فأرسل إليهما رسول الله ﷺ ألا يقسما الميراث، ونزل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[٢]، وبذلك انتفت سنة الجاهليين في عدم توريث البنات[٣].

وقد نزل القرآن الكريم يحدد ميراث المرأة، فعندما استشهد سعد بن الربيع الخزرجي، وترك ابنتين وامرأة وأخًا، أخذ الأخ المال كله، فاشتكت المرأة لرسول الله ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[٤]، فحدد الإسلام نصيبًا للمرأة التي كانت لا ترث في الجاهلية؛ بل كانت تدخل ضمن التركة، وتكون من نصيب الابن الأكبر، فإن لم يُرِدْها، تنازل عنها لأحد إخوته، أو زَوَّجَها وأخذ مهرها، أو تركها حتى تموت فيرثها[٥].

الطرب والغناء:

انتشرت الكثير من آلات الطرب لدى الخزرجيين وغيرهم في المدينة، حيث كانت تستخدم في المناسبات المفرحة؛ كالزواج، وقال صاحب تاج العروس: "ولما ورد رسول الله ﷺ إلى يثرب، استقبل بفرح عظيم وبالغناء وبنقر الدفوف، التي استعملها العرب فى المناسبات السارة؛ كالنكاح، ورافقوا به أصوات الغناء"[٦]، وورد عن الربيع بنت معوذ

(١) الرازي: تفسير مفاتيح الغيب، ج٩، ص ٢٠١؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٥٥.

(٢) النساء: ٧.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ٥٦٦.

(٤) النساء:١١.

(٥) جواد علي، المصدر السابق، ج٥، ص ١٠٨.

(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٢، ص ٣٥٤؛ الرازي، المصدر السابق، ج٩، ص ٢١٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٤٣٣؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٥٧؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٧٧.

الخزرجية أنها قالت: "جاء النبي ﷺ حين بُنِيَ عليَّ، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف"[١]. فهذا دليل على استخدام آلات العزف عند الخزرجيين قبل الإسلام.

وغالبا ما ارتبط العزف والغناء بوجود القيان[٢]، وكان أهل يثرب أول من اتخذ القيان من العرب[٣]، كما انتشرت بيوت البغاء فى المدينة، وكان بها نساء مسافحات، يُكْرِين أنفسهن، وهن يومئذ أخصب أهل المدينة، وكان لعبد الله بن أبيّ بن سلول (زعيم المنافقين) ست جوارٍ، منهن: مُعاذة ومُسيكة، وكنَّ يكرين أنفسهن بالزنا، ويأخذ ابن سلول منهن ضريبة يومية[٤]، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: "إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين؛ فإن يك خيرًا فقد استكثرنا منه، وإن يك شرًّا فقد آن لنا أن ندعه"، ولكن ابن سلول قال لهما: "ارجعا فازنيا"، فشكين إلى رسول الله ﷺ[٥] فمنعهما، وقد كانت معاذة من بني الحارث بن الخزرج، ثم وقعت في الرق، فدل ذلك على أن الأوس والخزرج كان يسبي بعضهم بعضًا في الجاهلية، ويملكون ما يسبون كسائر العرب[٦].

وقد كان لأهل يثرب إيمان بإمكانية وقوع الزنا بين الجن والإنس؛ فقد كان لفاطمة بنت النعمان النجارية الخزرجية - وهي كاهنة - تابع من الجن، كان إذا جاءها اقتحم عليها في بيتها، فلما كان في أول البعث أتاها، فقعد على حائط الدار ولم يدخل، فقالت له: لم لا تدخل؟ فقال: قد بعث نبي بتحريم الزنا[٧].

---

(١) أبو عبد الله البخاري: صحيح البخاري، ج٧، ص ١٩، ٢٠ (حديث رقم: ٢٣٢٤).

(٢) **القِيَان:** مفردها قَيْنَة، أي: الأمَة المغنية؛ الزبيدي: تاج العروس، ج٣٦، ص ٣١.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ١١٤.

(٤) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، بيروت، لبنان، ط١، ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م، ج١٨، ص١٦٢، ١٦٣.

(٥) الرازي: تفسير مفاتيح الغيب، ج٢٣، ص ٢٢١؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٢٨٩؛ السيوطي: لباب النقول في أسباب النزول، دار التقوى، القاهرة، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، ص ١٦٢، ١٦٣؛ سعيد الأفغاني: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، دمشق، ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م، ص ٥٩.

(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٢، ص ٥٦٦.

(٧) جواد علي، المصدر السابق، ج٦، ص ٧٦٠.

على أن مجالس الغناء والمجون فى الجاهلية كانت – غالبًا – هي مجالس الشراب؛ حيث كان أهل المدينة يسقون ضيوفهم شرابًا من الفَضِيخ، وهو خليط من بُسْر وتمر[١]، يضعونه في قلال وجرار، وكانوا يجلسون مجلسهم ويسقيهم أحد أبناء صاحب الدار، أو خادم من خدمه، في قلال أو كئوس يدور بها عليهم قليلا قليلا[٢].

الأعياد والمناسبات:

كان للخزرجيين من أهل يثرب عيدان، يلعبون فيهما ويستأنسون، هما: عيد النيروز، وعيد المهرجان، وقد أخذوهما عن الفرس، فلما قدم النبي ﷺ قال لهم: "قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرًا منهما: الفطر والأضحى"[٣]. ولا نعرف كيف كان يحتفل أهل يثرب بهذين العيدين، ولا ما هي صلتهم بهما.

العلاقات الاجتماعية بين قبيلة الخزرج والقبائل الأخرى:

كانت هناك الكثير من الروابط الاجتماعية بين قبيلتي الخزرج وقريش؛ فقد كان هاشم بن مناف (جد رسول الله ﷺ) يختلف إلى الشام في تجارته، فكان ينزل على صديقه عمرو بن زيد بن لبيد النجاري، فرأى ابنته سلمى بنت عمرو، فأعجبته فتزوجها[٤]، وقد كان من الخزرج فى الجاهلية من قدم إلى مكة وتزوج بها وحالف قريشًا، ومن هؤلاء: عبيد بن عمرو، من بني غنم بن عوف بن الخزرج، الذي قدم إلى مكة في الجاهلية، وأقام بها، وتزوج من أم أيمن، وبعد موته تزوجت زيد بن حارثة، وأنجبت أسامة بن زيد[٥]، وسفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن جُمح القرشي الجمحي، كان أصله من بني زريق ابن عامر، فحالف معمر بن حبيب الجمحي، فتبناه ونسب إليه، ثم أسلم في مكة وهاجر

(١) البخاري: صحيح البخاري، ج٧، ص ١٠٥ (حديث رقم: ٢٣٢٤)؛ النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٣، ص١٥٤.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج ٤، ص ٦٦٦.

(٣) الألوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ٣٤٧.

(٤) ابن هشام: سيرة النبي، ج ١، ص ٩٢؛ ابن حبيب: المحبر، ص٣٩٨.

(٥) عبد الله عبد العزيز إدريس: مجتمع المدينة فى عهد الرسول، ص١١٠.

إلى الحبشة، ثم عاد إلى المدينة هو وابناه جابر وجنادة من أرض الحبشة، وهما أخوا شرحبيل بن حسنة[١].

وهناك رواية للزبيري يقول فيها: "على أن من مُجَرَّبة بن كنانة، بنو ساعدة، رهط سعد بن عبادة"، وهم من الخزرج، وهي رواية وإن لم نؤيدها، إلا أنها تعطينا فكرة عن قوة العلاقات بين بني كنانة بن خزيمة - وهم من أسلاف قريش - وبني ساعدة، وهذه العلاقة قد تكون قرابة قديمة أو مصاهرة[٢].

كما حالفت بطون الخزرج قبائل جهينة التي كانت تعيش غربي المدينة، وأشجع التي كانت تعيش إلى شمالها الغربي، وحالفوا - كذلك - بعض بطون غطفان[٣].

***

(١) ابن الأثير: أسد الغابة، ج ١، ص ٥٦٠؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ١٠٨.
(٢) نسب قريش، ج ١، ص ١٠.
(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج١٥، ص ١٥٩.

٢- النشاط الاقتصادي لقبيلة الخزرج قبل الإسلام

رغم وقوع يثرب على مقربة من مدن حجازية أخرى مثل مكة، إلا أن النشاط الاقتصادي في يثرب اختلف عن الاقتصاد المكي؛ فلقد حددت البيئة اليثربية نوع النشاط الاقتصادي المختلف بها، وكان تطويق الجبال والحرار البركانية لموقع المدينة المنورة سببًا في جعل تربتها خصبة، وكانت سهولة الحصول على المياه العذبة عن طريق حفر الآبار غير العميقة - لتوفر المياه - سببًا في جعل أكثر المدينة بساتين ونخيل ومزارع، وفيها حياض كثيرة[١]؛ أي تميزت المدينة بالاقتصاد الزراعي، وبناء على ذلك قامت الصناعة والتجارة اعتمادًا على المنتجات الزراعية.

الزراعة:

كان العرب قد اتخذوا الزراعة وسيلة من وسائل المعاش والاكتساب، وخاصة قبيلة الخزرج بالمدينة، وعلى الرغم من ضعف الموارد المائية الميسورة آنذاك في الحجاز، فإن المتوفر من الأمطار والجداول والعيون والآبار والأودية، ساعد على قيام الزراعة في المواضع التي وجدت بها المياه؛ وتبعًا لذلك تنوعت الزراعة في الحجاز بين زراعة تعتمد على المياه الجارية (السيح) [٢] ومياه الأمطار، وزراعة تعتمد على السَّقي وتحتاج إلى السواني والنواضح[٣]؛ كما استخدموا البقر في الحرث[٤].

ونستطيع القول إن الزراعة شكلت تاريخ يثرب في الجاهلية؛ لأن الصراع داخل يثرب وبين سكانها من الأوس والخزرج واليهود، كان في باطنه صراعًا على المناطق ذات الخصوبة المرتفعة والمياه الوفيرة، ولقد كانت المدينة - بحق - مدينة الزراعة

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل المسيحية، ليدن، هولندة، ط٢، ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م، ص٨٠.

(٢) **السيح:** الماء الجاري الظاهر؛ الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ٢٨٨.

(٣) **السواني:** الرش عن طريق القِرَب؛ النواضح: الناقة يُسقى عليها؛ نفسه، ص ٣١٣.

(٤) البخاري: صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٠٣ (حديث رقم: ٢٣٢٤)، باب استعمال البقر للحراثة.

والمزارعين[١]؛ إذ إن معظم أهل المدينة، كانوا يملكون البساتين وحدائق النخيل والفواكه المختلفة، وكانوا يسمونها الحوائط[٢]، وهي لم تكن كبيرة المساحة، وربما كان متوسطها مائة ذراع في مثلها. ويشتمل الحائط غالبًا على بئر خاصة به، إلى جانب أطم يكون بجواره؛ لتوفير الحماية وتخزين المحاصيل، بل إن بعضهم لم يجعل لحائطه أي باب ظاهر سوى فتحة صغيرة، يدخل منها إلى جوف الحائط جدول ماء صغير من إحدى الآبار القريبة منه، وكانوا يسمون ذلك الجدول ربيعًا[٣]، وكانت بعض الأسر الخزرجية الأشد غنى تمتلك مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية؛ فقد ورد في صحيح البخاري عن رافع بن خديج الخزرجي[٤] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يفتخر قائلًا: "كُنَّا أكثر أهل المدينة حقلًا"[٥]، فدل ذلك على أن امتلاك الأراضي كان يحدد مستوى الأسرة داخل البطن الواحد.

والواضح أن أهل يثرب - ومنهم الخزرجيون - كانوا بارعين في الزراعة، ولكن كثرة الحروب الداخلية بالمدينة بين الأوس والخزرج، وتقاتلهم على الرئاسة والزعامة - بالإضافة إلى العصبية القبلية الضيقة[٦] - كانت عائقًا لنمو الزراعة في يثرب؛ لهذا نجد الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة يحث المسلمين على الإقبال على الزراعة والعمل بها، واستغلال الأرض؛ لأن فيها قوت المسلمين، فاهتم المسلمون بالزراعة - مهاجرون وأنصار - واستغلوا مناخ الاستقرار في المدينة، ولولا الفتوحات الإسلامية التي اشتغل بها المهاجرون والأنصار لتحولت يثرب إلى بساتين ومزارع، تُمَوِّن الأماكن البعيدة عنها بالتمور والفواكه والخضر والمحاصيل المختلفة[٧].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص ٨٢ - ٨٦؛ محمد عبد الحي الكتاني: نظام الحكومة النبوية المسمى (التراتيب الإدارية)، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ط٢، (ب - ت)، ج ٢، ص ٤٣، ٤٤.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٧، ص ٤١.

(٣) عبد الله عبد العزيز إدريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول، ص ٢٠٤.

(٤) هو رافع بن خديج بن رافع بن عدي بن زيد بن عمرو بن زيد بن جشم الأنصاري النجاري الخزرجي؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ٢، ص ٣٥٤.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٠٥ (حديث رقم: ٢٣٣٢).

(٦) جواد علي، المرجع السابق، ج٧، ص ٤١.

(٧) نفسه، ج٧، ص ٣١٣.

أهم المزروعات في المدينة:

كان الإنتاج الزراعي - ثم الحيواني - عماد الحياة بالمدينة، وكانت التمور أهم المحاصيل التي يتم إنتاجها، وقد أحاطت بيثرب هالة من الحوائط المغروسة بالنخيل، غرسها سادات يثرب، فصارت من أهم موارد رزقهم(١)، وكانت أرض المدينة صالحة لزراعة النخيل، حتى قيل: "إن ودية النخل كانت تثمر بعد عام من زرعها"(٢)، وعلى إنتاج النخيل كان يعتمد السكان، وأصبح التمر جُلّ طعامهم، وكانت تدفع منه الأجور وتسدد الديون؛ فقد ورد أن جابر بن عبد الله الخزرجي كان مدينًا لأحد اليهود بثلاثين وسقًا من تمر(٣).

وكان المزارعون ينتفعون بكامل النخلة، فيأكلون جُمَّارها، ويصنعون من الجريد سقوف المنازل، ومن الخوص المكاتل والقفف، وكان سقف المسجد النبوي من جريد النخل، وأعمدته من خَشَب النخل(٤).

ولقد شبه رسول الله ﷺ المؤمن بالنخلة قائلا: "أخبروني عن شجرة مثلها مثل المؤمن، كل ما فيه خير"(٥). وقد بلغ من أهمية زراعة النخل في صدر الإسلام، أن أصبح من حق العبد أن يكاتب سيده على عدد من النخيل يحييها له، وكان محصول التمر يكفي حاجة السكان - في غالب السنين - ولذلك كانوا يبيعون الفائض(٦).

أما غلات الحبوب - مثل القمح والشعير - فتأتي بعد محصول التمر من حيث الكثرة؛ إذ كانوا يزرعونها تحت النخيل، وكان الشعير يحتل المقام الأول في اعتماد الناس عليه، في حين أن زراعة القمح كانت لا تكفي حاجة السكان، ولذلك ذُكر أن القمح كان يُحْمل من

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٧، ص ٣١٢.
(٢) أحمد ابراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٢٩٢.
(٣) البخاري: صحيح البخاري،ج ٣، ص ١١٧ (حديث رقم: ٢٣٩٦).
(٤) نفسه، ج ١، ص ٩٧ (حديث رقم: ٤٤٦).
(٥) مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح المسمى (صحيح مسلم)، ج٨، ص ١٣٧.
(٦) عبد الله عبد العزيز إدريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول، ص ٢٠٦.

البلقاء – من أعمال دمشق – إلى المدينة[١]؛ كما زرع أهل المدينة بعض أنواع الفاكهة، مثل الكروم والرمان والموز والليمون والبِطِّيخ، كما كانت تزرع بعض الخضراوات؛ كالقرع واللوبيا والسَّلق والبصل والثَّوْم والقِثَّاء[٢].

المعاملات الزراعية:

تطرقت كتب الحديث والفقه إلى ذكر معاملات زراعية، كان الخزرجيون في المدينة يمارسونها قبل الإسلام، وعندما هاجر الرسول للمدينة حدث تقنين لأحكام وقوانين تنظيم الزراعة، وتحدد كيفية التعامل الزراعي في المدينة، مثل المحاقلة[٣]، والمخابرة، والمزارعة[٤].

النشاط الرعوي:

لم تكن منطقة المدينة بلاد رعي؛ فقد كانت الأراضي الصالحة للزراعة تستغل في إنتاج الحاصلات الزراعية، وما وراء منطقة يثرب كان مجالًا لنشاط القبائل البدوية، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان للخزرجيين من أهل المدينة ثروة من الإبل والماشية والأغنام، يرعونها على ما تنبت منطقة المدينة من أشجار وشجيرات رعوية[٥]؛ بالإضافة لوجود منطقة الغابة شمال غربي المدينة من ناحية الشام، فكان أهل المدينة يرعون بها[٦]؛ كما كان بعض أهل المدينة من الخزرج يمارس الصيد عن طريق الكلاب المعلمة أو البُزاة[٧].

---

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٣٨.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٢٩٤.

(٣) **المحاقلة:** بيع الزرع قبل بدو صلاحه، أو بيعه في سنبله بالحنطة أو المزارعة بالثلث أو الربع أو أقل أو أكثر، أو اكتراء الأرض بالحنطة؛ الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ص ١٢٧٤.

(٤) **المخابرة:** هي المزارعة على النصف ونحوه، أو الثلث أو الربع؛ أما المزارعة فهي المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البَذر من مالكها، فان كان من العامل فهي مخابرة؛ الفراهيدي: معجم العين، ج ٤، ص٢٥٨؛ النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٠، ص ٢٠٨ وما بعدها، باب المساقاة والمزارعة.

(٥) أحمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

(٦) ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٨٢.

(٧) النووي، المصدر السابق، ج١٣، ص ٧٣ وما بعدها (باب الصيد والذبائح).

النشاط الصناعي:

أما النشاط الحرفي أو الصناعي - بصفة عامة - فكان جيدًا في المدينة، ومؤديًا مهمته لسد حاجات الناس واكتفائهم، وقد اشترك فيه الخزرجيون مع جيرانهم من أهل المدينة، خاصة في تلك الصناعات المعتمدة على خوص النخيل، مثل القفاف والحصر والمكاتل ونحوها(١).

وكانوا يصنعون الخمر من التمر والبسر، وكانوا يسمونها الفَضِيخ، ويشربونها ويتاجرون فيها(٢)؛ كما كانت المدينة مشتهرة بصناعة الحُلي والزينة للنساء، وقد تخصص فيها يهود بني قينقاع. كما كانت صناعة الأسلحة من أهم صناعات المدينة وأشهرها، حتى إن الأعشى ذكر سهام يثرب في شعره(٣)، فقال:

شَرِعَتْ قِسِيَّ الماسِخيِّ(٤) رجالُنا ... بسهامِ يثربَ أو سهامِ الوادي

وإلى جانب هذه الصناعات المهمة كانت النساء الخزرجيات تقوم بصناعة النسيج؛ كما كانت الخياطة والدباغة من الصناعات والحرف التي يحترفها بعض الناس(٥)، فقد صنعوا الخزف والفخار من الطين، وكانوا يستخدمونه في أواني الشرب والأكل، وينقشون عليه بعض النقوش(٦).

وهكذا كان للصناعة أهمية كبيرة في المدينة، وكان يقوم بها العرب واليهود على السواء، ولكن العرب كانوا يأنفون من العمل في بعض الصناعات كالحدادة، فعمل بها الموالي والعبيد ممن قدموا إلى المدينة وأقاموا فيها.

---

(١) عبد الله عبد العزيز إدريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول، ص ٢٢٣.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٣٢ (حديث رقم: ٥٥٨٢).

(٣) الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٦٥.

(٤) **الماسِخيّ:** القواس الذي يضرب بالقوس، والوادي: يعني وادي القرى؛ ابن دريد: الاشتقاق، ص ٤٩٠.

(٥) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٠٩.

(٦) طلال شرف البركاتي: مكاييل بلاد الحجاز في عهد الرسول وعهد خلفائه الراشدين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م، ص ٣٢.

النشاط التجاري:

انخرط الخزرجيون في النشاط التجاري للمدينة، وقد كانت التجارة الداخلية في يثرب نشطة؛ لكثرة المنتجات الزراعية والحيوانية التي تنتج بها، بالإضافة إلى تقدم المدينة الصناعي - حيث برع يهود المدينة فى صناعة الحُلي والأسلحة - وكان جيران المدينة من الأعراب يأتون إلى المدينة للامتيار منها، ولتصريف منتجات البادية من إبل وغنم وخيل وصوف ووبر وسمن، وغير ذلك(١).

أما عن التجارة الخارجية فقد كان سكان المدينة يتاجرون مع الرحلات التجارية المكية الذاهبة إلى الشام، وكانوا يرحلون في الجاهلية إلى الأسواق العربية في عكاظ ومجنة وذي مجاز في موسم الحج؛ يبيعون فيها ويشترون(٢)، كما كانت التجارة تأتي إلى المدينة من الشام، يقول الواقدي: "كانت الساقطة تنزل المدينة في الجاهلية والإسلام، يقدمون بالبُر والشعير والزيت والتين والقماش، وما يكون في الشام؛ بل كانوا ينقلون أخبار المدينة إلى الروم"(٣). كما كان أهل المدينة يستوردون ما يلزمهم من أقمشة قطنية وحريرية ونمارق ووسائل الترف، وما يحتاجون إليه من زيت وزبيب ونبيذ من الشام ومن اليمن، وكانوا يستوردون العطور والمسك من البحرين(٤).

وكان من أهم مظاهر هذا النشاط التجاري كثرة الأسواق في المدينة، منها سوق حُباشة في بني قينقاع، وكان من أهم أسواق العرب في الجاهلية(٥)، وكانت لبيع العبيد، ويُرْوَى أن هاشم بن عبد مناف اشترى منها أَمَة سوداء كانت لعمرو بن سلول أخي أبيّ ابن سلول الخزرجي، أنجب منها ولدين(٦)، وأهم ما كان يباع فيها الحُلي والأقواس والرماح والسيوف.

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٢٩٩.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، ج ٣، ص ٥٣ (حديث رقم: ٢٣٣٢).

(٣) الواقدي: فتوح الشام، دار الجيل، بيروت، لبنان، (ب - ت)، ج ١، ص ١٧.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص ٣٠٤.

(٥) ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٠.

(٦) نفسه، ج ٢، ص ٢١١.

وكان بالمدينة سوق بزَبَالة من الناحية التي تدعى يثرب[١]، وسوق بالعُصَبَة غربي مسجد قباء، وسوق وسط منازل بني الحُبْلَى بموضع يقال له مُزاحم، وكانت تقوم في الجاهلية وأول الإسلام[٢]، ثم أنشأ رسول الله ﷺ سوقًا في موضع بقيع الزبير، فأقبل كعب بن الأشرف – من بني النضير – فدخلها وقطع أطنابها، فقال الرسول ﷺ: "لأنقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا"، ثم استأذن الرسول ﷺ من بني ساعدة أن يعطوه مقابرهم فيجعلها سوقًا فوافقوا، فتم إنشاء السوق بها[٣].

وقد كان اختيار المسلمين لموضع سوقهم اختيارًا موفقًا، دل على عُمق تجربتهم التجارية وفهمهم لأمور البيع والشراء؛ إذ كان واقعًا في جهة هي بمثابة المدخل الرئيس للمدينة؛ مما مكنهم من تلقي التجار والوفود حال وصولهم[٤]، وقد حظي السوق باهتمام الرسول ﷺ، فكان يقوم بنفسه – مع بعض الصحابة – يتعسس أحوال السوق، ويراقب أمورها وما يجري فيها.

ولقد منع الرسول ﷺ احتكار ما يأتي إلى السوق من البضائع والطعام، وكان الغش فاشيًا في أسواق المدينة قبل أن يضبطها رسول الله ﷺ، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أبخس الناس كيلًا"[٥]، ولقد نزل في المدينة اثنتان وثلاثون سورة من سور القرآن، وكان أول ما نزل بعد الهجرة سورة المطففين، التي تعالج الغش في الكيل والميزان[٦].

(١) السمهودي: وفاء الوفا، ج ٣، ص ٨٢.
(٢) نفسه؛ صالح أحمد العلي: الحجاز في صدر الإسلام، ص ٣١١.
(٣) السمهودي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٨٣.
(٤) عبد الله عبد العزيز إدريس: مجتمع المدينة في عهد الرسول، ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٨٣؛ السيوطي: أسباب النزول، ص ٢٣٦.
(٦) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٣.

وقد مارس أهل المدينة أعمال الصيرفة، وإن كانت حكرًا على اليهود، وهي بيع الذهب بالفضة، وكانوا يعتبرونها نوعًا من التجارة، وكان زيد بن أرقم الخزرجي يعمل في الصرف(١)، ولقد بين الرسول ﷺ حكم الإسلام في الصرف، فقال: "إن كانت يدًا بيد فلا بأس، وإن كان نسيئة فلا يصلح"(٢).

وقد كان الربا مظهرًا من مظاهر الحركة الاقتصادية التجارية، وكان يُزاول في المدينة مزاولة كبيرة، بين أهلها أنفسهم، وبينهم وبين الوافدين إليهم(٣)، ولمَّا جاء الإسلام حرم الربا، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾(٤)، واهتم الفقهاء بما ورد عن الرسول ﷺ في البيع والشراء، حتى قالوا: "لا يحل لأحد أن يشتغل بالتجارة ما لم يحفظ كتاب البيوع"(٥).

ولقد كان للتشريعات التجارية التي وردت عن الرسول ﷺ أثر كبير في رواج التجارة الداخلية في المدينة، وبدأت الثقة تأخذ طريقها إلى نفوس البدو، الذين يفدون بما لديهم من سلع، فازدادت التجارة في المدينة رواجًا أفاد جميع سكانها(٦).

العُمْلة:

كان أهل المدينة من الخزرج وغيرهم يتعاملون بالدراهم والدنانير؛ الأولى من الفضة والثانية من الذهب، ويقول ابن عبد البر: "كانت الدنانير في الجاهلية وأول الإسلام تُضرب ببلاد الروم، عليها صورة الملك الذي ضربت في عهده، وكانت تسمى الهرقلية؛ نسبة إلى هرقل ملك الروم، وكانت الدراهم كلها كسروية، عليها صورة كسرى"(٧).

---

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ٢، ص ٢٨.
(٢) البخاري: صحيح البخاري، ج ٣، ص ٥٥ (حديث رقم: ٢٠٦١).
(٣) نفسه، ج ٣، ص ٥٩، ٦٠ (حديث رقم: ٣٩٣٩).
(٤) آل عمران: ١٣٠.
(٥) الكتاني، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٨.
(٦) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ٣٠٣.
(٧) الكتاني، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢٨ وما بعدها.

المكاييل والموازين:

لما كانت منتجات المدينة - في الأغلب - حاصلات زراعية، فإن المكاييل كانت أكثر استعمالًا فيها من الأوزان؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: "المكيال مكيال المدينة، والوزن وزن مكة"(١)، وكانت أهم المكاييل المُد والصَّاع، وكان الصاع يساوي أربعة أمداد، وقد كان الرسول ﷺ يغتسل بالصاع ويتوضأ بالمد، وكان الوسق يساوي حمل بعير، ويعادل ستين صاعًا، أو ثلاثمائة وعشرين رطلًا، أما الأوزان التي كانت تستخدم فهي: المثقال والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والأوقية(٢).

ويمكننا القول إنه لولا الحروب الداخلية وتنازع أهل المدينة فيما بينهم على السيطرة والزعامة؛ لكانت المدينة ذات شأن خطير من الناحية الصناعية والتجارية، ولربما تفوقت على مكة وسيطرت على منطقة الحجاز كلها؛ ومن هنا كان لابد من الاستعانة بطرف خارجي يأتي لتوحيد المدينة، والقضاء على ما بها من نزاعات، فكانت الهجرة النبوية إلى المدينة بمثابة صمام الأمان الذي أخرج المدينة مما كانت فيه من صراع، وارتفع بها إلى مكانة لم تكن تدور في مخيلة أهلها.

***

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق: سيد رجب، دار الهدى، مصر، ط١، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م، ج ٢، ص ١٨٩؛ الكتاني، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٨.

(٢) نورة عبد الملك: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة، ص ١٥٢.

٣- الحياة الدينية لقبيلة الخزرج قبل الإسلام

كانت الحياة الدينية في المدينة قبل الإسلام شديدة التفتت، كثيرة الصراعات، وكأنها كانت تهيئ وتمهد سكان المدينة إلى هذا الحدث المهم الذي سوف يغير وجه تاريخها وتاريخ العالم من حولها، ويَخْرُج بها من ظلمات الشك إلى نور اليقين؛ بل ويدفع بهذه المدينة من مكانها على حافة التاريخ إلى معترك ذلك التاريخ وقلب أحداثه؛ ألا وهو التوحيد الذي جاء به الإسلام، وكان الصحابة الخزرجيون أول أهل المدينة دخولًا فيه ومناصرة له.

ولقد كانت عبادة الأوثان والأصنام[١] هي العبادة الرئيسة المنتشرة في الحجاز قبل الإسلام، على أنه يمكننا القول إن هذه العبادة كانت مختلطة اختلاطًا كبيرًا ببقايا من دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ كتعظيم بيت الله الحرام، والطواف به، والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدي البُدْن، والإهلال بالحج والعمرة[٢]، كما كانوا يعظمون الأشهر الحرم، فيتوقف فيها القتال بين البطون المتحاربة.

ولقد ذكر القرآن الكريم بعض هذه الأصنام التي عبدها العرب قبل الإسلام، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[٣]، وهذه الأصنام الثلاثة إناث في نظر الجاهليين[٤]، وقد كان مناة[٥] هو المعبود

---

(١) **الصنم:** في تعريف علماء اللغة: هو ما اتُّخِذَ إلهًا من دون الله، وكان له جسم أو صورة كالتمثال، وعمل من الخشب أو النحاس أو الذهب أو الفضة أو غيرها من جواهر الأرض؛ فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن؛ كالأحجار التي تعبد على صورتها دون تغيير، وهناك قول آخر بأن الوثن هو الصنم؛ ابن الكلبي: الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م، ص ١٣.

(٢) ابن هشام: سيرة النبي، ج ١، ص ٧١.

(٣) النجم: ١٨، ١٩.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٢٤٦.

(٥) **مناة:** هي أقدم الطواغيت الثلاثة، وكان منصوبًا على ساحل البحر، وتأتي بعدها اللات والعزى. الخليل بن أحمد: معجم العين، ج٨، ص ٣٩١؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص ٢٠٤.

المعبود الرئيس لسكان يثرب من الأوس والخزرج[١]، وهو أقدم أصنام العرب كلها على حد قول ابن الكلبي[٢]، ويقول ابن اسحاق: "كانت مناة للأوس والخزرج، ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المُشَلّل[٣] بِقُدَيد[٤]" [٥]، على سبعة أميال من المدينة[٦]، على الطريق لمكة في منطقة فَدَك[٧].

وكان سدنة مناة الغطاريف من الأزد[٨]، ويظهر لنا أن هذا الإله كان واسع الانتشار؛ فقد كان المعبود الرئيس لجميع قبائل الأزد وأزد شنوءة والأنصار، وكان الغساسنة يولونه عنايتهم؛ بل إن ملك غسان الحارث بن أبي شمر الغساني أهدى إليها سَيْفَان، هما مِخْذَم ورَسُوب[٩]، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره:

مُظـــاهِرُ سِرْبـــالَيْ حَدِيْـــدٍ علـــيهما عَقِـيْلا سُـيُوْفٍ مِخْـذَمٌ ورَسُـوْبُ[١٠]

وتعني لفظة مناة عند ياقوت الحموي القدر أو الموت أو الابتلاء[١١]، ويسميها بروكلمان إلهة القضاء والقدر[١٢]؛ في حين أن محمد خان يشير إلى أن الإلهة مناة العربية هي

(١) ابن الكلبي: الأصنام، ص ١٣.

(٢) نفسه، ص ١٣، ١٤. (وراجع خريطة توزيع الأصنام في: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م، خريطة رقم: ٣٧).

(٣) **مشلل:** كمعظم وهو جبل يُهبط منه إلى قديد، أو ثنية تشرف على قديد كان بها مناة الطاغية؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص ١٣٦؛ الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، بيروت، لبنان، (ب - ت)، ج٢، ص ٩٧.

(٤) **قديد:** اسم موضع قرب مكة. ياقوت، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٣.

(٥) ابن هشام: سيرة النبي، ج ١، ص ٧٥؛ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٦) ياقوت، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٠٤؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٢٤٦.

(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٨) ابن حبيب: المحبر، ص ٣١٦.

(٩) ابن الكلبي، المصدر السابق، ص ١٥.

(١٠) **سميح دغيم:** أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م، ص١٠١.

(١١) معجم البلدان، ج٥، ص ٢٠٤.

(١٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٢٦.

إلهة الموت (مامناتو) عند البابليين[١]، وقد أتى بها عمرو بن لُحَي من شمال شبه الجزيرة العربية، هي وأصنام أخرى، ووضعها في البيت الحرام[٢]، ويربط جواد علي بين مناة والإله الكنعاني (مني)، وهو إله القدر، ويربطه أيضًا بالصنم (منوت) من أصنام ثمود[٣].

ولم تذكر الروايات شيئًا عن معبد (مناة)، ولكن الطبري يشير في تفسيره إلى "أنه كان له بيت بالمشلل"[٤]؛ فلا يعقل أن يكون له سدنة ولا يكون له بيتٌ يئويه[٥]. ويقول جواد علي: "وهناك خلاف على هيئة مناة وشكله، منهم من يقول إن مناة صخرة، سميت بذلك لأن دماء النسك كانت تراق عندها، ومنهم من يقول إنه كان صنمًا منحوتًا من حجارة كان منصوبًا على ساحل البحر، وجعله بعض الرواة في الكعبة مع بقية الأصنام"[٦]، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج[٧].

وقد بلغ من تعظيم الأوس والخزرج لمناة أنهم كانوا يهلون منها للحج إلى الكعبة[٨]؛ وذلك بأن يغادروا يثرب إلى معبد الصنم، فيكونون فيه لمراقبة هلال ذي الحجة، فإذا أهلّوا لبّوا، ثم يسير من يسير منهم إلى مكة؛ لحج البيت، وكانت لهم تلبية من نُسك مناة وهي: "لبيك اللّهم لبيك لبيك، لولا أن بكرًا دونك، يَبَرُّك الناس ويهجرونك، ما زال حج عثج[٩] يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك"[١٠]، فإذا تمت أعمال الحج ووقفوا مع

(١) محمد عبد المعين خان: الأساطير العربية قبل الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، رسالة دكتوراه منشورة، ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٢) ابن الكلبي: الأصنام، ص٨؛ محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٤٢هـ = ١٩٢٣م، ص١٥١؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٢٤٨.

(٣) نفسه، ج٦، ص ١٥٧.

(٤) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ج٢٢، ص ٥٢٤.

(٥) جواد علي، المرجع السابق، ج٦، ص ٢٤٧.

(٦) نفسه، ج٦، ص ٢٤٨.

(٧) ابن الكلبي، المصدر السابق، ص ١٣.

(٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٩) **العثج:** جماعة من الناس في السفر؛ الخليل بن أحمد: معجم العين، ج ١، ص ٢٢١.

(١٠) ابن حبيب: المحبر، ص ٣١٣.

الناس المواقف كلها لا يحلقون رءوسهم، فإذا نفروا أتوا صنمهم فحلقوا رءوسهم عنده، لا يرون لحجهم تمامًا إلا بذلك، وكانوا يحلفون بها لقداستها عندهم، وقد ورد بيت من الشعر، ينسب إلى عبد العزى بن وديعة المزني، فيقول:

إنّي حَلَفْتُ يمينَ صِدقٍ بَرَّة بمَناةَ عند محلِّ آل الخَزْرَجِ

ومن هنا نصل إلى أن المحِل الذي يقف فيه آل الخزرج هو المحِل الذي يُحلف به أمام مناة، وكان العرب يسمون الأوس والخزرج جميعًا: الخزرج[١].

وقد كان الخزرجيون يذبحون حول مناة ويهدون لها؛ فعن سعيد بن سعد بن عبادة بن دُيلم، قال: "إن دُيلمًا جدهم كان يهدي إلى مناة الصنم كل عام عشر بدنات، ثم كان عبادة يهديها كذلك، ثم كان سعد يهديها كذلك، إلى أن أسلم، ثم أهداها قيس بن سعد بن عبادة إلى الكعبة"[٢].

وقد تم هدم مناة على يد سعد بن زيد الأشهلي الأوسي، بعد فتح مكة، سنة ثمان للهجرة، لست بقين من رمضان[٣]، وفي رواية أخرى أن الذي هدمها هو علي بن أبي طالب[٤].

وقد كان للعرب - كسائر عُبَّاد الأوثان من الشعوب القديمة - نوعان من الآلهة: عائلي وقبلي، يقول ابن الكلبي: "إنه كان لكل بيت صنم يعبده سكانه، وكلما كان أحد الأفراد يود السفر كان آخر شيء يفعله قبل الرحيل أن يتمسح في إلهه، وكان ذلك - أيضًا - أول ما يفعله عند عودته إلى داره"[٥].

---

(١) ابن الكلبي: الأصنام، ص ١٣، ١٤؛ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٣٥٤.

(٢) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١، ص ٣٥٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٣٤؛ القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣٢٧؛ الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ج٦، ص ٣٠٤.

(٤) ابن الكلبي، المصدر السابق، ص ١٥.

(٥) نفسه، ص ٣٣.

وقد ورد عن ابن إسحاق أن سيد بني سَلِمة وشريفها عمرو بن الجموح، كان له في بيته صنم من خشب[١]، يسمى مناف عند ابن سعد[٢]، ويسمى مناة عند السمهودي[٣]، وكان يعظمه ويطهره، وكانت بنو سلمة تذبح ذبائحها على صنم عمرو؛ لشرف عمرو فيهم، وعندما رأى انتشار الإسلام بيثرب، دخل على مناف فقال: "يا مناف تعلم والله ما يريد القوم غيرك، ثم خرج وأوصى أهله قائلًا: استوصوا بمناف خيرًا؛ فإني أكره أن أرى لمناف يوم سوء"[٤].

وهكذا نشهد تغلغل عبادة الأصنام في نفوس أهل يثرب من الأوس والخزرج، ومع ذلك كان هناك من له رأي آخر؛ فهذا أبو قيس صرمة بن أبي أنس الخزرجي، وكان شاعرًا من بني النجار[٥]، وكان قوالًا بالحق، يعظم الله في الجاهلية[٦]، ترهب ولبس المُسُوح، وفارق عبادة الأوثان، وهمَّ بالنصرانية ثم أمسك عنها، ودخل بيتًا له فاتخذه مسجدًا لا يدخله طامث ولا جُنُب، وقال: "أعبد رب إبراهيم"، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أسلم وهو شيخ كبير، وحسن إسلامه[٧]، وقد كان عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يختلف إليه؛ ليأخذ عنه الشعر[٨].

أما عن الديانات السماوية في يثرب، فقد كان هناك بعض الخزرجيين قد تهودوا، فقد تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن؛ لمجاورتهم يهود خيبر وبني قريظة وبني النضير[٩]، وكانت المرأة المِقلات[١٠] في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٢٩٠.
(٢) كتاب الطبقات الكبير، ج ٤، ص ٣٧٣.
(٣) وفاء الوفا، ج ١، ص ٤٠٩.
(٤) ابن سعد، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٧٤، ٣٧٥.
(٥) محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية، ص ١٩٩.
(٦) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١، ص ٤٤٣.
(٧) نفسه، ج ١، ص ٤٤٤؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٣، ص ١٨، ١٩؛ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٢؛ الألوسي: بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٦٦.
(٨) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٩؛ ابن حجر، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٤٢.
(٩) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٩٨.
(١٠) **المِقْلات:** ناقة تضع واحدًا ثم لا تحمل، وامرأة لا يعيش لها ولد. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ١، ص ١٤٧.

تهوده، فتهود قوم منهم[١]، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا، وأرادوا أن يجبروهم على الإسلام فنزلت: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾[٢].

وذكر العلماء - أيضًا - أن بعض الأنصار كانوا مسترضعين في بني قريظة؛ فتهودوا، وأن من الأنصار من رأى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان، فهودوا أولادهم[٣]، وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة، وجد اليهود من الأوس والخزرج قد نما عددهم، بحيث إننا وجدنا رسول الله ﷺ يحدد لليهود الخزرجيين حقوقهم في الصحيفة التي كتبها، وتحدد الصحيفة أربعة بطون خزرجية صغيرة من اليهود؛ هي يهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، فلو أن أعداد هذه البطون كانت قليلة، أو أنه لم يكن لها أهمية لما ذُكرت في الصحيفة[٤].

أما عن النصرانية فقد دخلت جزيرة العرب مع بضاعة مستوردة من الخارج، هي تجارة الرقيق من الجنسين، وقد كان في يثرب رقيق نصراني، كان يقرأ ويكتب ويفسر للناس ما جاء في التوراة والإنجيل، ويقص عليهم قصصًا نصرانية، ومنهم من تمكن من إقناع بعض العرب في دخول النصرانية[٥]، وإذا أضفنا إلى ذلك أنفة أهل المدينة عن العمل في الحرف المختلفة وخاصة اليدوية كالصناعة، فسر لنا ذلك كثرة أعدادهم بالمدينة؛ بل إنهم استمروا بالمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ فهذا حسان بن ثابت يرثي رسول الله ﷺ، فيقول:

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣١٠.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٥١٥.

(٤) ابن هشام: سيرة النبي، ج ٢، ص ٦٧؛ محمد حميد الله: الوثائق السياسية للعهد النبوي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط٥، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، ص ٦١.

(٥) جواد علي، المرجع السابق، ج٦، ص ٥٨٨، ٥٨٩.

فرِحــتْ نــصارى يَثــربٍ ويهودهــا لــمّا تَــوَارَى في الــضَريحِ المُلحَــدِ[١]

وإذا حللنا بيت حسان السابق، استنتجنا أنه كان في يثرب نفر من النصارى، كما كان بها قوم من يهود عند وفاة الرسول ﷺ.

القرآن والحياة الدينية عند العرب:

على أن الناظر فيما ورد من القرآن الكريم يجد أن الجاهليين كانوا يؤمنون بإله فوق مستوى الأصنام والأوثان ذات الأشكال المحسوسة؛ إذ جاء فيه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[٢]، وجاء فيه أيضًا: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[٣]؛ وهكذا كانت لفظة (الله) دارجة بينهم قبل ظهور الدعوة الإسلامية، على أن الحديث عن الله في المدينة كان ذا معنى خاص؛ وذلك لوجود اليهود بها، وكثرة حديثهم عن نبي يؤمنون به، ويحاربون معه، فيقتلون الأوس والخزرج قتل عاد وإرم[٤]، ولقد كان بين الجاهليين من كرهوا الأصنام، ورأوا أنها لا تنفع ولا تضر، فلم يتقربوا إليها وقالوا بالتوحيد، ومنهم أبوقيس صرمة بن أبي أنس الخزرجي، وأسعد بن زرارة الخزرجي[٥].

على أننا في نهاية العصر الجاهلي نلاحظ وجود حالة من القلق الديني، أو ضعف الوثنية، منتشرة في شبه الجزيرة العربية كلها بصفة عامة، ويثرب بصفة خاصة، ولقد تحدث عنها الخربوطلي نقلًا عن المؤرخ الهندي المسلم (خودابخش) في كتابه الحضارة الإسلامية قائلًا: "كان العرب يقدسون آلهتهم، فيحجون إلى أماكنها المقدسة، ويقدمون الأضحيات في معابدها، ويخضبون بدماء هذه الأضحيات الهياكل الحجرية، ويستجيرون

(١) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م، ص ٩٧، ٩٨؛ سميح دغيم: أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص ٧٤.

(٢) العنكبوت: ٦١.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف: الدولة الإسلامية الأولى، دار القلم، القاهرة، ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م، ص٦٣.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٦٨.

بكهنتها في وقت الشدة، ويسألونها عما يخبئه المستقبل؛ ولكن هذا كله كان تظاهرًا وتصنعًا، فلم يكن هناك شعور بإيمان حقيقي؛ ولكن كان العربي يبدي غضبه لأقل شيء على الآلهة، ويخاطبها وكأنه يعرف حقيقتها، فيسخر منها"[١].

ويظهر لنا من القول السابق، أن العرب - خاصة في يثرب - كانوا غير راضين عن نظامهم الديني، وكانوا عاجزين عن الوصول إلى ما هو أحسن، بحيث يرضي حاجاتهم ومطالبهم، وكانوا في اختلافات دينية، يمارسون عبادة الأوثان، ولكن بدون الشعور بإيمان داخلي حقيقي.

ولقد مهد هذا الجو الديني لتلك الثورة الدينية التي آن لها أن تتفجر فى شبه الجزيرة العربية، ألا وهي الإسلام، الذي أخرج الناس من الفكرة المسيطرة القائلة بتعدد الآلهة، وعدم وجود معنى محدد لمنطوق لفظ الإله، إلى هذه الرؤية الإسلامية للإله الواحد المنزه تنزيهًا مطلقًا.

ويعلق المستشرق (جب) على فكرة التوحيد الجديدة على العالم في تلك الفترة التاريخية قائلًا: "إن الرسالة المحمدية قد أعطت لمضمون فكرة الإله معنًى جديدًا أكثر تكاملًا؛ حيث طهرته من عناصر الشرك والتعدد، واستبدلت بصورة الله الغامضة البعيدة، حقيقة الإيمان بالذات الإلهية الحقيقية المتعالية"[٢].

***

(١) علي حسن الخربوطلي، الكعبة على مر العصور، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م، ص ٦٠.

(٢) H.a.r. Gibb, Mohammedanis: An Historical Survey, Second. Oxford Uni. Press "New York 1962, p 54".

٤- الحياة الثقافية لقبيلة الخزرج قبل الإسلام

كانت الحياة الثقافية مزدهرة في يثرب قبل الإسلام، إذا ما قورنت بأنحاء شبه الجزيرة العربية المختلفة، وقد ذكر أهل الأخبار أن قومًا من أهل يثرب من الأوس والخزرج، كانوا يكتبون ويقرأون عند ظهور الإسلام، وقد ذكر منهم: المنذر بن عمرو بن خنيس بن لوزان الخزرجي، وكان يكتب فى الجاهلية بالعربية(١)، وسعد بن عبادة بن دليم الخزرجي، وسمي الكامل فى الجاهلية؛ لأنه كان يحسن الكتابة والعوم والرَّمي(٢)، وزيد بن ثابت من بني النجار من الخزرج، وكان يكتب بالكتابين العربي والسرياني، وكتب لرسول الله ﷺ ومن بعده لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣).

ويرجع انتشار القراءة والكتابة في يثرب قبل الإسلام إلى قوم من يهود يثرب، مارسوا تعليم الصبيان، دعوا ببني ماسكة، وقد تعرض البلاذري لهذا الأمر، فقال: "كان يهود المدينة قد علموا كتاب العربية، فكانوا يعلمونه الصبيان في المدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون"(٤).

وهذا أنس بن مالك الخزرجي يقول: إن أمه جاءت به يوم قدم رسول الله ﷺ يثرب، وقالت له: "يا رسول الله، هذا ابني وهو غلام كاتب". ويدل ذلك على أن بعض غلمان يثرب كانوا يقرأون ويكتبون(٥)، وقد كانوا يستعينون بصبيان الكُتَّاب في بعض الأحيان لكتابة جملة نسخ مما يراد نشره أو إذاعته، فقد ورد أن النجاشي الشاعر هجا بني النجار من الأنصار، فرد عليه حسان بن ثابت، ثم قال لهم: "اكتبوها صكوكًا وألقوها إلى

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٨، ص ١١٦، ١١٧.
(٢) ابن قتيبة: المعارف، ص ٢٥٩؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٨٠.
(٣) ابن قتيبة، المصدر السابق، ص ٢٦٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٢، ص ٣٤٧.
(٤) فتوح البلدان، ص ٤٧٩؛ جواد علي، المرجع السابق، ج٨، ص ١١٤.
(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٩٦؛ ابن حجر، المصدر السابق، ج ١، ص ٧١.

صبيان المكاتب، فما مر بضع وخمسون ليلة حتى أتى آل النجاشي به موثقًا معهم"؛ وذلك للاعتذار لحسان ولبني النجار(١).

ويقول جواد علي: "ولقد كان للديانتين اليهودية والنصرانية فضل كبير على شبه الجزيرة العربية في نشر الكتابة والعلوم؛ إذ صارت معابدهم مدارس يتعلم فيها الناس الدين، والأطفال القراءة والكتابة"(٢).

على أن المقريزي والصالحي كان لهما رأي آخر؛ فقد ورد عنهما أنه: "لم يكن في الأنصار من يُحسِن الكتابة"(٣)، ويتضح من هذا القول أن المدينة كانت متأخرة بالنسبة إلى مكة في الكتابة، ولكن هذا الرأي يظهر ضعفه، فهذا سويد بن الصامت الأوسي دعاه رسول الله ﷺ للإسلام فرد قائلًا: "لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان"، فدل ذلك على معرفته بالقراءة ووجودها بيثرب(٤)، ويضاف إلى هذا كثرة من أشارت إليهم المصادر بالكُمَّل من أهل المدينة؛ لأنهم كانوا يكتبون في الجاهلية، ويحسنون العوم والرمي(٥)، وهذا عبد الله بن رواحة يقول عنه ابن سعد في طبقاته: "كان يكتب في الجاهلية، وكانت الكتابة في العرب قليلة"(٦)؛ كما كان أبيّ بن كعب، وأوس بن خولي وغيرهم، يكتبون أيضًا(٧).

ويمكن القول إن وجود أهل الديانات السماوية في المدينة من يهود ونصارى، أدى إلى ارتفاع المستوى الثقافي بالمدينة؛ وذلك لكثرة الحديث عن الديانات والأنبياء بها، ولقد

---

(١) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت، ص ٢١٣.

(٢) المفصل في تاريخ العرب، ج٨، ص ٢٩٣.

(٣) تقي الدين المقريزي: إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م، ج ١، ص ١١٩؛ الصالحي: سبل الهدى والرشاد، ج ٤، ص ١٠٤.

(٤) ابن هشام: سيرة النبي، ج ٢، ص ٢١؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ص ٣٧؛ البيهقي: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دارالريان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م، ج ٢، ص ٤١٩.

(٥) ابن قتيبة: المعارف، ص ٢٥٩، ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٨٠.

(٦) ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، ج ٣، ص ٤٨٧.

(٧) نفسه، ج ٣، ص ٤٦٢.

أدى ذلك إلى سرعة دخول عرب المدينة في الإسلام؛ لكثرة سماعهم من يهود المدينة عن نبي آخر الزمان.

ولقد امتلك أهل الخزرج أهم وسائل الإعلام في العصر الجاهلي، ألا وهو الشعر، الذي برع فيه أهل يثرب براعة عظيمة، وقد أشار أهل الأخبار إلى بيوت ذكروا أنها اشتهرت بقرض الشعر، كان أهمها بيت حسان بن ثابت؛ فقد كان أبوه وجده وأبو جده شعراء، وابنه عبد الرحمن كان شاعرًا، وسعيد بن عبد الرحمن كان شاعرًا[١]، وكذلك بيت النعمان بن بشير الزُّرقي، لسان الأنصار وشاعرهم، كانت أمه عمرة بنت رواحة شاعرة، وكان خاله عبد الله بن رواحة أحد شعراء الرسول ﷺ[٢]، وكان كعب بن مالك من أسرة أظهرت جملة شعراء، فمالك والد كعب كان شاعرًا، وعمه قيس كان شاعرًا كذلك، وكان أولاد كعب وأحفاده شعراء "مجيدين مقدمين في الشعر"[٣].

ويمكننا أن نرجع سبب تقدم الشعر في يثرب إلى حروب الأوس والخزرج، التي كان الهجاء أحد أسلحتها الرئيسة، ولقد ذكر ابن سلام الجمحي في طبقاته تأثير الحروب في نظم الشعر، فقال: "وبالطائف شعر وليس بالكثير، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج، أو قوم يُغِيرون ويُغَار عليهم، والذي قلل شعر قريش أنهم لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا"، ويدل ذلك على أن الحروب الداخلية في يثرب كانت سببًا في ارتفاع المستوى الشعري[٤].

وقد كان بين الحيين في يثرب هجاء؛ فقد كان شعراء كل حي يهجو بعضهم بعضًا عصبية؛ وذلك لما كان بينهما من تحاسد وتنافر، ومثال ذلك أن أبا قيس بن الأسلت الأوسي، وحسان بن ثابت الخزرجي، كانا يتهاجيان[٥]، وهذا عمرو بن امرئ القيس، جد

(١) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج١٥، ص ٢٦.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٥، ص ٣١٠؛ ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٨.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، المصدر السابق، ج١٥، ص ٢٦.

(٤) محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، دار المدني، جدة، السعودية، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م، السفر الأول، ص ٢٥٩؛ بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص ٣٩.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٩، ص ٧٢٥.

عبد الله بن رواحة، وهو شاعر جاهلي خزرجي، كان له الكثير من الشعر في القتال الذي وقع بين الأوس والخزرج؛ بسبب حرب (سمير) [١].

وكان سوق يثرب، هو المَحِل الذي يجتمع فيه الناس للبيع والشراء، والموضع الذي يقصده الشاعر لإنشاد شعره، وعرضه على مستمعيه، ثم حل مسجد الرسول ﷺ مَحِلَّه في الإسلام[٢].

ولقد طبقت شهرة يثرب الشعرية الآفاق؛ فهذا أبو عبيدة يقول: "اجتمعت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وعلى أن أشعر أهل المدر حسان بن ثابت"[٣]، ولقد مدح الأصمعي شعره الجاهلي قائلًا: "ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية"[٤]، ويقول عنه ابن سلام الجُمحي: "وهو كثير الشعر جيدُ"[٥]، ويستعرض الحطيئة شعره قائلًا: "أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب"؛ حيث يقول:

يَغْشَوْنَ حَتَّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ لا يَسْأَلُونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ

هذا البيت الذي قاله حسان في مدح ملوك غسان[٦]، وعلق عليه الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان عالمًا بالشعر قائلا: "أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا"، وكان حسان قد أدرك النابغة الذبياني والأعشى، وأنشدهم، وكلاهما أثنى على شعره[٧].

ولقد كان لأهل يثرب ملكة في نقد الشعر، واستطاعوا أن يحكموا على الشعر، ويميزوا غثه من سمينه؛ فقد كان إحساسهم بالشعر إحساسًا فطريًّا لا تعقيد فيه، ويتذوقونه جِبِلَّة وطبعًا، ويحكمون على مستواه بالذوق والسليقة، ومما يدل على تمكن أهل يثرب من ملكة

(١) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٩، ص ٧٢٨.
(٢) نفسه، ج٩، ص ٧٣٨.
(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١، ص ٢٠٧.
(٤) أبو عبيد الله محمد المرزباني: الموشح، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٣هـ = ١٩٢٥م، ص ٦٢.
(٥) محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، السفر الأول، ص ٢١٥.
(٦) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م، ج ١، ص ٣٠٥.
(٧) ابن عبد البر، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٧.

النقد أنهم لاحظوا في شعر النابغة الذبياني إقواء[١]، عندما أنشدهم، واستحوا أن يقولوا له ذلك، فجاءوا بقينة وأمروها أن تغني من شعره ففعلت، فلما سمع الغناء فطن لموضع الخطأ فلم يعد، وخرج من المدينة وهو يقول: "دخلت وفي شعري صنعة وخرجت منها وأنا أشعر العرب"[٢].

وتفوق أهل يثرب في الخطابة أيضًا، فكان لكل بطن من البطون خطيبًا يتحدث عنها ويعرض موقفها من الأحداث المختلفة، وكان أشهرهم ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي، كان خطيب الأنصار، وخطيب النبي ﷺ ولسان حال الأنصار في الجاهلية والإسلام[٣].

وقد كان الغناء مزدهرًا في يثرب، وكان أول من اتخذ القيان من العرب أهل يثرب، أخذوا ذلك من بقايا عاد[٤]، ولقد انتشرت مجالس الطرب في يثرب بوجه عام؛ حيث كانوا يجلسون في مجالس اللهو ويسمعون وهم يشربون الخمر[٥]، وتغنيهم القيان، وكان هناك نوع آخر من الغناء هو الترنيم، وهو تطريب الصوت، ويستخدم في الغالب في الأدعية والتراتيل الدينية، مارسه اليهود في عبادتهم، ومارسه أهل المدينة عند أصنامهم[٦].

ونستنتج مما سبق أن الحياة الاجتماعية عند قبيلة الخزرج كانت متوائمة مع بيئتها، ومع ما هو سائد في شبه الجزيرة العربية من عادات وتقاليد، حتى إن عمائر الخزرج تشابهت مع

---

(١) **الإقواء:** هو عيب في القافية الشعرية، وهو أن تختلف حركات الروي، وقيل هو رفع بيت وجر آخر، أو اختلاف الإعراب في القوافي، وذلك أن تكون قافية مرفوعة، وأخرى مجرورة؛ الخليل بن أحمد: العين، ج٥، ص ٤١٥.

(٢) المرزباني: الموشح، ص ٣٨، ٣٩؛ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، ج٩، ص ١٦٣، ١٦٤؛ طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص ١٨، ١٩؛ محمد زكي العشماوي: النابغة الذبياني مع دراسة للقصيدة العربية في الجاهلية، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م، ص ١٨٨.

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١، ص ١٢٥؛ الكتاني: التراتيب الإدارية، ج ١، ص ١٩٥.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ج٥، ص ١١٤.

(٥) نفسه، ج٧، ص ٥٤١.

(٦) نفسه، ج٧، ص ١٢٠.

بيوت جميع المدن العربية الأخرى؛ كما كان للأسرة الخزرجية دور عظيم في النهوض باقتصاد المدينة عن طريق العمل في الزراعة والرعي والتجارة، فأدى هذا للتنوع في مصادر الدخل الذي جعل المدينة أيسر حياة من مكة، وأكثر منها في التطور الحضاري.

ولقد كانت الديانات في يثرب متنوعة؛ فلقد كان أكثر سكانها يعبدون الأصنام والأوثان؛ كالخزرجيين، وكانت هناك الديانة اليهودية، والتي كان يعتنقها اليهود المهاجرون، وبعض العرب الذين آمنوا بها؛ بسبب التجاور مع اليهود.

***